في ذكرى النكبة و60 عاماً على رحيله:

إبراهيم طوقان: الشعر نكتة... قد تلفظ النار والدما!

صبحي حديدي *

■ حتى أيامنا هذه تعتمد مناهج الأدب العربي لطلاب المرحلة الإعدادية، أو الثانوية، في كثير من الدول العربية، قصيدة بعنوان «الفدائي»، يقول مطلعها:

لا تَسَلْ عن سلامتهْ
روحه فوق راحتهْ
بدَّلَتْهُ هُمومُهُ
كفناً من وِسادتهْ
بين جَنبيهِ خافِقٌ
يتلظَّى بغَايَتهْ
من رأى فَحْمَةَ الدُّجى
أُضرِمَتْ من شرارتهْ
حَمَّلَتْهُ جهنَّمٌ
طَرَفاً من رسالته
هو بالباب واقفٌ
والرَّدى منه خائفُ
فاهدأي يا عواصفُ
خجلاً من جراءتهْ
صامتٌ لو تكلَّما
لَفَظَ النَّارَ والدَّما
قُلْ لمن عاب صمتَهُ
خُلُقَ الحزمُ أبكما

ويحدث غالباً أن يترك هذا النصّ الشعري أثراً حماسياً عميقاً في نفوس الطلاب، فيحفظونه عن ظهر قلب، ويرسخ في وعيهم سنوات طويلة بعد الدراسة، حيث تتكفل الحياة بإعفاء الذاكرة من حفظ عشرات النصوص التي كانت أساسية في مقررات مناهج الأدب.

هذه القصيدة هي للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (1905ـ1941)، الذي تتصادف ذكرى رحيله مع السنة الستين للنكبة، كما اصطلح العرب على تسمية سقوط فلسطين في يد العصابات الصهيونية المسلحة وإقامة دولة إسرائيل. وكان طوقان قد نشر هذه القصيدة بتقديم موجز جاء فيه: «عيّنت الحكومة المنتدبة يهودياً بريطاني الجنسية لوظيفة النائب العام في فلسطين، فأمعن في النكاية والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التي كان (يطبخها)، ولما ثقلت على العرب وطأته، كمن له أحد الشباب المتحمسين في مدخل دار الحكومة وأطلق النار عليه فجرحه». بمثل هذه القصائد، وبموضوعات تدور حول هموم الانتداب البريطاني والتهويد والهوية الوطنية لفلسطين ونضالات أبنائها، استحق ابراهيم طوقان مكانة «شاعر فلسطين» الأول في العقود السابقة على حرب 1948 وتأسيس الدولة العبرية.

وكان طوقان جزءاً من حركة شعرية ناشطة، ضمّت أمثال عبد الرحيم محمود، وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) وحسن البحيري ومطلق عبد الخالق ومحيي الدين عيسى، إلى جانب أمثال الشيخ سليم ابو الاقبال اليعقوبي (الذي لُقّب بـ «حسّان فلسطين») واسكندر الخوري البيتجالي وبرهان الدين العبوشي. وكان الوضع المتفجر في فلسطين، وثورات 1929 و1936، والشهداء الذين كانوا يتساقطون بصفة شبه يومية نتيجة الصدامات مع قوات الانتداب البريطاني والعصابات الصهيونية، والصفقات الدولية ضد العالم العربي وفلسطين، لا تترك أمام الشعراء خيارات كثيرة أخرى خارج موضوع الهوية، والنضالات الوطنية، وامتداح الشخصية البطولية الفدائية.

ويرسم علي الخليلي ثلاثة مسارات حدّدت مضامين وأغراض الشعر الفلسطيني في تلك الأطوار: 1) «الوعي الوطني المبكر لمقاومة الاستيطان اليهودي والصهيونية في فلسطين، إلى جانب تنامي الحسّ القومي العربي في مواجهة الاستعمار البريطاني»؛ و2) «تبلور الهوية الوطنية الفلسطينية في غمار ثورة فلسطين الكبرى، على امتداد السنوات 1936ـ1939، والبطش البريطاني الاستعماري الدموي بهذه الثورة، ثمّ صدور قرار التقسيم 1947، واشتعال المعارك مع المنظمات الصهيونية المسلحة...»؛ و3) «النكبة ونشوء إسرائيل في العام 1948، وقد عكست القصيدة في هذه المرحلة شخصية اللاجىء والمشرّد، وانتشار المخيمات، والحنين (...) والتصميم على العودة والتحرير، مع إدانة الأنظمة المتخاذلة وحكامها المتقاعسين».(1)

ورغم وجود بعض التيارات التجديدية التي حاولت كسر الشكل الكلاسيكي للبيت الشعري، فإن التيار العام السائد في الشعر العربي آنذاك كان الشكل العمودي الذي يستند على البحور الشعرية التقليدية. وربما كانت الخصائص الإيقاعية العالية لهذا الشكل هي التي خدمت أغراض الشعراء الفلسطينيين قبل عام 1948، لأنها ببساطة كانت تحقّق الغرض الخطابي المباشر، وتسهّل السماع والحفظ والتداول الشفاهي لقصيدة أُريد لها أن تكون تنويعاً على، أو حتى أن تلعب دور، البيان السياسي التحريضي. هذه الخصائص كانت آنذاك، وفي احتساب طبائع الذائقة ووظائف الأدب والوعي الجمالي، الأشدّ قدرة على خدمة الشاعر عبد الرحيم محمود (1913ـ1948) حين نطق بلسان الشهيد واعتمد ضمير المتكلم... والذي استُشهد فعلاً في معركة الشجرة:

سأحمل روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسرّ الصديق
وإما ممات يغيظ العدى
لعَمْرُكَ إني أرى مصرعي
ولكن أغذّ إليه الخطى

أو يفلح عبد الكريم الكرمي (1907ـ1980) في إسباغ نفحة رومانسية على غزل وطني، إذا جاز القول، تختلط فيه صورة الحبيبة بأوصاف فلسطين ومحاسنها، أو يحدث أن يغيب الاختلاط نهائياً لكي تتوحّد الاشواق في تراب الوطن وحده، في القتال من أجله بغية محبّته اكثر:

كلّما حاربتُ من أجلك أحببتك أكثرْ
أيّ تُرْبٍ غير هذا التربَ من مسكٍ وعنبرْ
أيّ أفقٍ غير هذا الأفق في الدنيا معطّرْ
كلّما دافعتُ عن أرضكِ عودُ العمر يَخْضَرّ
وجناحي يا فلسطين على القمّة يُنشرْ
ولعلّ انفراد إبراهيم طوقان النسبي عن أقرانه من شعراء تلك الحقبة بدأ من هذه المسألة بالذات: الشكل، واللغة الشعرية، وكتابة قصائد تتناول موضوعات أخرى غير البطولة الوطنية، مثل الغزل والمديح والهجاء.

ومن المدهش أن نعثر، في ذلك الزمن من الثقافة العربية وفي تلك الظروف المشحونة من تاريخ فلسطين، على شاعر يرى أنّ «الشعر نكتة، قد يحسن الشاعر قولها وقد لا يحسن، وقد (يلقطها) القارىء أو السامع أو قد تفوتهما»؛ أو يؤمن بأن الشعر «عبارات نثرية موزونة لا أثر لكدّ الخاطر عليها، بل اتفق لها هي... أن تكون موزونة»!

هذه الآراء الليبرالية، كما يتوجّب القول، كانت تنبع من حقيقة ميل طوقان إلى لغة الحياة اليومية، وعزوفه عن الإفراط في البلاغة وجزالة التعبير وفخامة الألفاظ، وشهيته الدائمة إلى «تسريب» تعبير عاميّ هنا أو هناك في قصائده، بحيث يكتسب الشعر لمسة وجدانية وإنسانية حتى في ذروة الحماس والخطابية. وقد رأى الدكتور إحسان عباس أنّ حماس طوقان للغة الشعبية ضمن له «شعبية التعبير» وهذه بدورها قرّبته من قلوب الناس: «استطاع إبراهيم من خلال الربط بين قانونه النثري ومبدأ النكتة أن يجعل جانباً كبيراً من شعره غذاء للشعب سواء في لحظات الراحة والمتعة، أو في لحظات الثورة والنضال».

ويتابع عباس: «ربما نسي الشعراء المحدثون أنّ إبراهيم رائد من روادهم، لقد جرّاهم بالتنويع في داخل القصيدة الكبيرة على تنويعات من نوع جديد، ومن خلال البساطة المنفّرة بوضوحها والتي شاءها مجالاً للشعر فتح لهم الباب الى خلق دهاليز الغموض، وعن طريق الالتزام بقضية وطنه أعطاهم درساً عميقاً في أنّ الارتباط بقضية الشعب لا بدّ أن تتمّ أولاً على مستوى التعبير الدارج المؤثر الموحي الذي يعني أنّ الشعر مظهر ضروري لتصفية المبتذل والمألوف».

وقصيدته الشهيرة «الثلاثاء الحمراء» مثال كبير على ذلك. إنها قصيدة مناسبة، كُتبت في امتداح ثلاثة من أشهر شهداء فلسطين (فؤاد حجازي، محمد جمجوم، عطا الزير)، أعدموا عام 1930 بسبب مشاركتهم في انتفاضة 1929، وهدفها الرئيسي هو الرثاء البطولي والتحريض الجماهيري. ولكنّ طوقان اعتمد في كتابتها اسلوبية لافتة بالفعل، إذ استخدم ثلاثة تنويعات في شكل البيت الشعري، تستجيب لثلاث حالات نفسية، لثلاثة أبطال، على امتداد ثلاثة أيام، وثلاث ساعات! وحماس إحسان عباس لهذه القصيدة يذهب إلى حدّ القول: «في النقلة من نطاق الموشح في حديث الأيام، إلى التباري الخطابي في حديث الساعات، كان إبراهيم يضع نواة مهمة في تطوير الشعر الفلسطيني».(2)

وثمة في هذه القصيدة عشرات الأمثلة على تلك النقلات البارعة من صوت إلى صوت باطن آخر، ومن نبرة عالية إلى أخرى خفيضة، ومن زمن مطلق إلى زمن ملموس، ومن قافية موحّدة إلى أخرى متغايرة، ومن شكل العمود المتعاقب المتراص إلى شكل الموشّح الطليق المنسرح...:

لمّا تَعَرَّضَ نَجْمُكَ المنحوسُ
وترنَّحت بعُرى الحبال رؤوسُ
ناح الأذانُ وأعولَ الناقوسُ
فالليلُ أكدرُ والنَّهارُ عَبوسُ
طَفَقَتْ تثورُ عواصفُ
وعَواطفُ
والموت حيناً طائفُ
أو خاطفُ
والمعْولُ الأبديّ يُمْعِن في الثرى
ليردَّهم في قلبها المتَحجّر
يومٌ أطلَّ على العصور الخاليَهْ
ودعا أمرَّ على الورى أمثاليَهْ

وضمن انحيازه إلى اللغة الشعبية، اختار طوقان الموضوعات الشعبية أيضاً، فكتب العديد من القصائد التي يصف فيها صراع جسده مع المرض، وتناول المشكلات الاجتماعية والاقتصادية بروح نقدية طريفة، وكتب الكثير في الغزل الرقيق والغزل الحسي، وله «نصوص محرّمة» تستخدم لغة هجائية وجنسية مكشوفة للغاية، لم تُنشر في ديوانه وإن كانت قد اشتهرت في فلسطين والعالم العربي، وتتهامسها الشفاه حتى أيامنا هذه. ومن طرائفه قصيدته الساخرة «الشاعر المعلّم» التي يعارض فيها قصيدة حول الموضوع ذاته لأمير الشعراء أحمد شوقي، القائل: قُمْ للمعلم وفّه التبجيلا/ كاد المعلم أن يكون رسولا. بعض ردّ طوقان جاء هكذا:

شوقي يقول وما درى بمصيبتي
قُمْ للمعلّم وفّه التبجيلا
إقعدْ فديتكَ هل يكون مبجلاً
مَن كان للنشء الصغار خليلا
ويكاد يفلقني الأَمير بقوله:
«قم للمعلم وفّه التبجيلا»
لو جرّب التعليم شوقي ساعة
لقضى الحياة شقاوة وخمولا
يا من يريد الانتحار وجدته
إن المعلم لا يعيش طويلا

وبمعزل عن طرافة المعارضة، لم يجد طوقان أي حرج لغوي في استخدام التعبير العامي «يفلقني»، ولم يجد حرجاً أخلاقياً في تقويض الصورة الجليلة التي يحظى بها المعلم في بنية الوعي العربي، وأخيراً لم يجد حرجاً أدبياً في السخرية من بيت شعري كتبه أمير الشعراء وذهب آنذاك مذهب الحكمة التي تُقتبس على الدوام كلما اتصل الأمر بالتعليم والمعلّم.

وفي قوله أنّ الشعر نكتة لم يكن إبراهيم طوقان يقصد التخفيف من قيمة القصيدة من حيث علاقات الجدّ والهزل، بل التخفّف ما أمكن من الجزالة والتفخيم والصنعة والإفراط في التفنّن، كما فعل في قصيدة المعلّم، وكذلك في قصيدة أخرى طريفة يمزج فيها حزن العاشق ولوعته بتغزّل من طراز خاصّ ساخر وشاتم وحانٍ وإيروتيكي في آن معاً. والقصيدة تروي رسالة من الحبيبة، تشكو فيها آلام ضرسها، وتبدأ هكذا:

رسالة واهاً لها واها
شَرَقتْ بالدمع لفحواها
من غادة عذّبني نأيها
ما ضَرَّ لو كنتُ وإيّاها
أضراسها تؤلمها ليتني
أشكو الذي سبّب شكواها
تلك ثنَاياها التي نَضدت
عقدين والمكسور إحداها
آثارها في شفَتي لم تزلْ
يا ضلَّ مَن يجهل معناها
رَشفت منها سَلسلاً بارداً
صادف نيراني فأطفاها

وليس دون فلسفة جمالية متقدّمة، ومتكاملة على نحو ما، أن يكون صاحب هذه القصيدة، وقبلها تلك الساخرة من حال المعلّم؛ هو نفسه صاحب القصيدة الحماسية الشهيرة «موطني»، النشيد الوطنيّ العراقي اليوم ونشيد الأحرار العرب خلال معظم ثورات التحرّر الوطني ضدّ الاستعمار، وقصيدة الواقف بالباب والردى منه خائف. ولهذا فإنّ الحركة الشعرية التي صنعها إبراهيم طوقان وصحبه، وكان فيها بارزاً مجليّاً، هي الأب الشرعي للحركة الشعرية التي ستُسمّى «شعر المقاومة الفلسطينية»، والتي ستتبلور منذ أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات، وتضم أمثال توفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم. ولكن من الواضح أيضاً أن خيارات طوقان (في استخدام لغة الحياة اليومية، وكسر جمود الشكل، وتناول الموضوعات الشعبية) كان لها الأثر الأعمق في تحرّر شعر المقاومة من الشكل التقليدي للبيت، وحيازة معجم لغوي جديد في حرارته ومخزونه الإيحائي، فضلاً عن الفهم الإنساني المختلف للشخصية البطولية.

ومسيرة إبراهيم طوقان الأدبية لم تُدرس بعد بشكل يليق بها، وثمة موضوعات خصبة لبحث العلاقة بين مختلف أطوار شعره وبين مسائل أخرى مثل سلسلة أمراضه (صمم في الأذن اليمنى، وقرحة في المعدة، وفقر الدم) التي أودت بحياته في نوبة نزيف مفاجئة، وكذلك احتكاكه المبكّر بالعالم العربي (دراسته وتدريسه في الجامعة الأمريكية ببيروت، وأسفاره إلى العراق ومصر)، وأثر الأسرة التي نشأ في كنفها (وهي أسرة نابلسية ذات عراقة أدبية، أنجبت أيضاً الشاعرة الكبيرة الراحلة فدوى طوقان، وإنْ كانت من جانب آخر أسرة محافظة ومتدينة)، وسواها من المسائل.

وريثما يفي النقد العربي إبراهيم طوقان حقّه، فإنّ طلاب المدارس في العالم العربي سوف يواصلون ترديد أكثر من بيت شعري راسخ في خزين الذاكرة، من مزيج طوقان الفريد المتعدد: هو بالباب واقفٌ/ والردى منه خائفٌ؛ و: نستقي من الردى/ ولن نكون للعدى/ كالعبيد/ لا نريد/ ذلّنا المؤبدا/ وعيشنا المنكدا؛ أو...

حَسْبُ المعلّم غمّةً وكآبة/ مرأى الدفاتر بكرة وأصيلا؛ و: إنّ الجمال إذا تجمّع شمله/ فالويلُ كلّ الويل للشعراء!

---

* ناقد من سورية يقيم في باريس

إشارات:

(1) «مختارات من الشعر الفلسطيني»، اختيار وتقديم علي الخليلي. منشورات أمانة عمّان، عمّان 2002. ص 9ـ11.

(2) إحسان عباس: «نظرة في شعر ابراهيم طوقان»، مقدّمة ديوان طوقان، طبعة دار القدس، بيروت 1975. وقبل هذه الطبعة صدر الديوان في بيروت عن دار الشروق الجديد، 1955؛ ودار الآداب، 1966 بعدهما عن دار العودة، 1988. كذلك أعدّ الشاعر الفلسطيني المتوكل طه مختارات من طوقان، نثرية وشعرية ورسائل وأحاديث، ودراسة في قصيدة «الثلاثاء الأحمر»، صدرت مجتمعة بعنوان «حدائق إبراهيم طوقان»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، 2004.

«كيف يأتيك التجلي» لحسام الوحيشي:

تحت الكلام يوجد الصمت!

محمد الأصفر *

■ الشاعر الذي يبدأ ديوانه بسؤال هو شاعر يحاول أن يقدّم إجابات للكائن الآخر الساكن في روحه والذي يحاوره دائما ويستشيره ويتقاسم معه القلق واللذة والصفاء والسعادة وكل ما يصطاده الإنسان من هذه الحياة اللغز عبر حواسه الكثيرة المتموضعة في جسده وأحلامه وعقله الباطن والظاهر.. حسام الوحيشي شاعر ليبي شاب يرى الكلمات كلها مضببة مغلفة بمسحة من الجوع والعطش والحيرة والجنون والنار والثلج.. يهرب منها لكنه سرعان ما يتم القبض عليه بواسطة القصائد المطاردة الشامة رائحته اينما جلس أو نام أو سافر.. كل الأشياء البسيطة التي يستعملها في حياته اليومية تتشعرن بمجرد أن يمسّها بناره أو سؤاله.. كوب الشاي يصير دفؤه ونكهته وسكره قصيدة.. نعناعه يزداد اخضرارا على الرغم من الماء الحامي المغموس فيه.. السكر يذوب ولا يذوب.. يتمرد على اللسان فيصير مرا إن تذكر الشاعر فراقاً قديماً أو لقاء أنجز لا تداعب فيه أو ليس على ما يرام.. الطاولة تتحدث.. الكراسي تتحدث.. النافورة تنثر الماء وتتحدث للعصافير الظامئة.. فوانيس النور تقرض الشعر.. في جلسة هذا الشاعر في المقهى تمر الحياة طازجة وكأنها اصيل طرابلسي عليل أو ظل ضحى درناوي بجانب الشلال.. أو لفحة مكيف هواء تفاجئك عندما تترك الشارع وصخب محطة حافلات الإفكو وتدخل مبنى عمارة ذات العماد أو لسعة قرن فلفل عقب ملعقة مملوءة بكسكسي أعدته طرابلسية جميلة لم تنسها أكلات شيوف الفضائيات إجادة طهيها بحب وحميمية.

مقهى (لورورا) هو المقهى الذى شهد ميلاد عدة قصائد لهذا الشاعر.. فهذا المقهى يعتبر من المعالم السياحية في مدينة طرابلس وذلك لإطلالته البديعة على ميدان الجزائر.. التحفة المعمارية الرائعة.. حيث المباني العتيقة.. مبنى البريد.. مبنى جمعية الدعوة الإسلامية الكنيسة سابقا .. النافورة التي تتوسط باحة المقهى.. الأعمدة الشاهقة.. جزيرة الدوران التي تتوسطها حديقة خضراء.. الكثير من المثقفين والرياضيين والموظفين والعابرين تجدهم جالسين في هذا المقهى المفتوح على الهواء الطلق.. كان لا بد للقصائد ان تولد هنا.. تربط الماضي بالحاضر.. تخرج الحرف القديم لتصله في الجديد.. تغفل على نفسك قليلا في هذا المقهى تجدها تقول الشعر.. وما اكثر الأوراق والأقلام بجانبك.. تشعر بنفسك انك عاشق للطبيعة وللهدوء وللابتسامات المنبثقة من وجوه الندل والرواد.. إن ابتعدت عنه أو سافرت أطل عليك بمهابته وعاتبك بسجل هائل منقوش بالذكريات فتقترب لا إراديا وترد عليه بقصائدك كي يرضى المقهى الطيب عنك و يطمئن أنك لم تمل منه ولم تهمله أو تتجاهله .. يقول حسام في قصيدته:

مشتاق أنا مشتاق
للمة الغرام
في (لورورا)
وعبثنا الجميل
مشتاق أنا مشتاق
لكأس شاي
أخضر باللوز
يفوح بالنعناع
لليل نور
عابق بالدردشة
يطول للصباح
لضحكة
من ثغرها
وغمازة
في خدها تغور
لنهد فل مترع
فوقه القميص
والأشواق
مشتاق أنا مشتاق

ولا أعتقد أن الشاعر في كلماته السابقة قد تكلف أو حاول أن يلعب لعبة المثقفين في تطريز النص بالحكمة والأفكار والكلمات ثقيلة الدم ذات الدلالات الكبيرة والساذجة وربما الغامضة.. فالشاعر هنا هبط إلى البساطة.. قطرة من الحبر سكبها على ورقة وعبث بها بإصبعه الطفولي.. فحكت لنا عن ذكرى جميلة ما زالت تعيشه.. سويعات مرحة قضاها في مقهى.. شرب خلالها مع الحبيب كوب شاي بالنعناع ودردش معه وتأمل في جماله متمنيا أن يطول هذا التأمل الحسي والصوفي إلى الصباح.. لم يبحث عن مكان آخر يقضي فيه ليلته.. هو لا يريد شيئا سوى شرب الشاي بالنعناع والحديث مع الحبيب وتأمل ضحكته وما تجلبه من كنوز الموسيقى واحمرار اللسان وبياض الأسنان المبتسمة وغمازة خده وانتفاخ نهده الزافر لكتان القميص..وهذه أمان صغيرة طازجة حية متواصلة.. فالقصيدة هنا لم تمت وتنتهي وكيف لها أن تنتهي والجلسة قد استمرت للصباح الذي هو مبتدأ الزمن المرفوع بالنور والزقزقة دائما.

سنلاحظ أن الشاعر الشاب حسام الوحيشي في ديوانه هذا وهو الديوان الأول له يضع سن قلمه على عدة أشياء.. ليس مهما ان نسميها قضايا أو هواجس أو بؤراً.. لكن سأسميها اشياء.. أولها حبّه للغة.. وهي الأداة او السلاح الذي يمارس به لعبته الشعرية.. وهذا الحب للحرف يعتبر من اساسيات الكتابة.. سنجد أن معظم كلماته منتقاة جيدا ومصقولة ومنحوتة من نار لا دخان فيها.. وهذا يعني انه من الشعراء المشتغلين على القصيدة والذين لا يمنحون الإلهام كل ثقتهم.. والذين ذاقوا حلاوة الحرف منذ الصغر فتتبعوا سحره قراءة وكتابة حتى ورطهم.. لن نعتبره من النفريين لأن معالم قصيدته لم تتضح بعد فما زال في مخاض تجريبي يتبين دربه وسط هذا الزخم مبعدا كل صوت حاول أن يتسلل إلى قصيدته.. شاعر يحب اللغة والحوار ومخاطبة الأشياء الحية والجامدة.. المادية والمعنوية سنقرأ الآن له:

غلاف كتاب «كيف يأتيك التجلي» (القدس العربي)

دسّني إني لغة
ربما تضحو حقيقة
أزل نمش الكلام
ستجد الصمت
حاول أن تموت
بعد حلول جهنم
ستدرك بصعوبة أنه لا وفاة
في الغموض وضوح كامل
هكذا يمطر بزق القصيدة
فيبتل عقلي
ليشمخ حطامك
.....

وايضا من قصيدة اخرى له:

من يبعد عن سطور
دفتري
غسيل الأمس
يا جدّي ماذا يقول
الورق ؟
ماذا نزف اللسان؟

وعبارة : «دسّني إني لغة.. ربما تضحو حقيقة..» عبارة كبيرة.. عبارة تعويلية تحيلنا إلى تقديس المعنى واحترامه وتمجيد النبل والنور والخير وغيرها من القيم.. لقد قال عبارته هذه التي لو حذفنا اسم حسام الوحيشي الشاعر الجديد ووضعنا تحتها غوته أو لوركا او غيره من الشعراء الكبار لمرت في المدونات الأدبية بسهولة.

فالكنز سيظل دائما في الكلمة.. والكلمة هي كل ثروة الوجود.. ولا نريد ان نواصل قراءة بقية القصيدة.. أزل نمش الكلام.. ستجد الصمت.. حاول أن تموت.. بعد حلول جهنم.. ستدرك بصعوبة أنه لا وفاة.. في الغموض وضوح كامل.. هكذا يمطر بزق القصيدة.. فيبتل عقلي.. ليشمخ حطامك.

أنا مع الرأي الذي يقول أن الشعر لا يفسر لأنه حالة إبداعية يهرب فيها المبدع من العقل والمنطق ليبني لنا عالمه الخاص الذي بالضرورة سيكون عالمنا إن تم قبوله من قبل ذائقتنا.. وهنا الشاعر الجيد هو الشاعر المتعمق في النفس البشرية إلى أبعد مدى.. يتعمق فيها لا يعني ان يعبر عنها.. هو يعبر عن نفسه بصدق ويترك بعد ذلك الأمر للنفوس للتفاهم فيما بينها.. لكن ان كذب عن نفسه وتقعر ومكر وزيف وادعى فسوف يظل سابحا على سطح نفسه فقط التي حتما ستزدريه وتحتقره لأنه لم يجلب لها النفوس الخيرة الجميلة.

شعر حسام الوحيشي يكسوه حس نقدي.. يدين هذا العالم الذي لم ينصفه.. يناهض القوة والظلام والظلم والفراق والقبح.. به حب حسي ورغبات ظامئة تحتاج إلى إشباع.. به حب للكلمات والجمال وتقديس للصداقة.. به تمرد لكن بحذر.. وبه ثورة لكنها ثورة ما زالت تستفيد من نور مشاعل الآخرين.

---

* كاتب من ليبيا

خذوني من القميص الأبيض

عبدالرحمن عفيف *

سأمضي وكان لي حبّ

سأمضي وكان لي حبّ
وأمضي إلى الحبّ
إلى الجسد الذي وراء الوحل
والمساجد الفصحى
واللّهجات الملتهبة بألوانها
غيمة مرّت في السّوق
ورأت غبار قميصي
وأنّني في الصّيف
وأنّني في مدينة صموتة
صح يا جسدي في الرّبيع بالسنابل
صح يا حدّ حدّي.

قد أمشي مثل ولد
ضاع قلبه في قلبه
والشّجرة في جيبي
مثل عنزة عجوز
قد أمشي
ولا أنام كحارس أرجواني
في برار ليست هناك
وبرار أرجوانيّة
لجسدي المرهق.

وإن رأيت أمينة في الطّاقة التّرابية
سأسلّم على النّرجسة في عيني الشّعر
قالت الطّفلة على الشّارع الغباري
طفلة بشعر حنّاء
من فم الظّهيرة.
ماذا يفكّر التّراب بتلّ
وتلّ بغبار مدينة
خلف
خلف التلّ الأخضر.

وأمينة صفراء على التّلال الطّفلة
برق الرّعد العجوز بالعنزة
على منكبي أنا الصّافي
الصّافي المتموّج
مثل الشّمس
أمينة فضيّة صفراء
القطار المار في معصم
اللّيل كحبّة عنب.

أمينة ليست أمينة
لتكون لي
ولنفسها العاشقة والنّائمة على سطح
البارحة مثل عاشقة في بيت
بشجر السّرو
وشبّاك غامق في سيّارة صفراء
من المرسيدس الدموي
وزغاريد أفضل
على الغطاء.

لو أعطتني حجلة الجيران الحبر
والجناح والسّتارة
لغامرت بقلبي ومفتاح بيتي
ودرّاجتي المتحطّمة
واقتحمت النّاس كأنّني
على حبّ مغامر بالجيران
والمفاتيح والسّكاكين
والماضي الدافىء.

قلبي كان مثل نفسه
يحملق في المقابر على التلّ المختفي
وجاءت شجرة لوز
وجاءت قرية ببئر عميقة
وتأرجح قلبي بينهما
وبين أمينة.

ماذا أفعل بدرج أصبح ثرثارا
وقلبي عليه حجر ودرج؟
غمرنا المسجد بالصّلوات
والمساكين وبالمنارة
كنعش الحبّ والأقرباء
ماذا أفعل بالصّبّاح والفجر
والذكرى الخائفة
جناح اللّيل.

سأمضي
وكان لي حبّ
وأمضي إلى الحبّ
إلى الجسد وراء الوحل
والمساجد الفصحى
واللّهجات بألوانها
غيمة مرّت في السّوق
رأت غبار قميصي
وأنّني في الصّيف
في مدينة صموتة
صح يا جسدي
في السنابل.

نسينا
نسينا قال السبانخ
نسينا
قالت المزهريّة
والطّنجرة
وقالت أمّي
تذكّرنا
وقال البرميل
نسينا
وصابونة البرميل
نسينا
والشّارع الضيّق
قبل الفرن الآلي
وعصفوريّة الأزهار المتوحّشة
في كوى وأباريق
البريّة
وقلت
نسينا
نسينا
أيّها المتوحّش.

أنا عاشق مدمّر على
الفضّة في مساء القامشلي
أنا عاشق مكسّر على صنوبر
الطّريق وأنا طنجرة من عظام
القلوب والباصات
والتنك المستهلك على سطوح
الدكاكين
أنا صبغ وقشرته على
آخر تذكّر ونسيان
ومدرسة واستراحة
أتعرف بيتي
بين الزقاق والممرّ وقصائد
الأصدقاء.

دعنا نذهب إلى اللّيل
الأبيض في مزارع البطيخ
نقطف الليل من البطيخ الأحمر
دعنا نذهب إلى العنب التموزي
نقطف البطيخ من إبط الحقل
وإن تكلّمت معك الوردة
وجار ميّت تحت الجدار
فقل الجدار والجار الميّت
وكن نفسك
ولو لمرّة كلّ ثلاث عشرة
سنة.

مرّة إن زرت الآلهة المرّة
لنفس الأرض
ولنفس الحقل الأخضر
بالماء المنعش.

قل:
هذه كنيستي
وهي أمينة أصبحت أمينة
في الشّعر الذي تكسّر وتحطّم
في النفس الذي تبدّد.
هذه أمينتي التي تكلّم عنها
المشعوذون والبطّالون ولم تكن.
ناس أخذوا على مناكبهم الدمغة
للتعب والحبّ والسيّارات
والمتعبين والمهاجرين
وسكران آخر الليل
ونملة آخر النّهار.

وأنا كعنكبوت اختفيت في بطانات
الأعراس
كلّ عرس فقير هو عرسي
وكلّ فقير هو سكني
وكلّ فقير هو حبّي الذي
لم يعد فقيرا بعد
حبّي غنيّ بفقرائه.

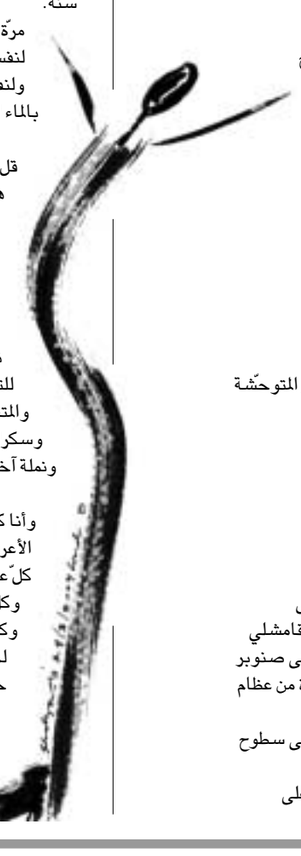

---

* شاعر من سورية

صدور العدد 24 من «عود الند»:

عامان من النشر الإلكتروني الراقي

لندن ـ «القدس العربي»:

احتوى العدد الجديد من مجلة «عود الند» الثقافية نصوصا لكل من سناء شعلان وسلمى الناشف وربا الناصر وسليم الموسى وربيع محمود الربيع وهيام ضمرة (الأردن) وبدر الدين بلال (السودان) ومنال الكندي (اليمن) وأحمد طوسون (مصر) ومنى كاظم وهدى الدهان (العراق) وآمال يحياوي (الجزائر). ولوحة الغلاف للفنان أحمد القزلي.

في موضوع عن ابن حزم صاحب كتاب «طوق الحمامة»، ترد الأستاذة في الجامعة الأردنية، سناء شعلان، على زعم المستشرق الهولندي، رينهارت دوزي، أنّ ابن حزم تحدث عن الحبّ العذري العفيف لأنّه كان مسيحيا قبل إسلامه، وتخلص إلى أن ابن حزم كان وريث العشق العربي. أما سلمى الجيوسي فكتبت موضوعا عن أهمية البحث العلمي في حياتنا. وواصلت آمال يحياوي كتابة نصوص موجهة للصغار، وهذه المرة مسرحية بعنوان «ريان في مدينة الأمنيات».

العدد الجديد، 24، يتوج عامين من الصدور لمجلة رسمت لنفسها خطا متميزا في النشر الإلكتروني. وفي هذه المناسبة، قال المشرف على المجلة، عدلي الهواري: «هذا العدد مسك ختام عامين من الصدور المنتظم، المتميز بالجودة، والتعامل القائم على الاحترام للكاتبات والكتاب والقارئات والقراء، فخلال العامين نشر كثيرون نصهم الأول في «عود الند»، وتطورت مقدرتهم الكتابية مع مرور الأيام. أما المحترفون فقد وجدوا في «عود الند» منبرا راقيا يوصل أعمالهم إلى جمهور أوسع. نحن سعداء بالنجاح الذي حققته المجلة التي تصدر كمبادرة ثقافية لا تهدف إلى الربح».

في العدد أيضا الأبواب الثابتة المتجددة، منها حفنة أخبار، الذي يضم أخبارا عن إصدارات جديدة بينها مجموعة قصصية لهيام ضمرة، وكتاب عن المجتمع المدني لنادية أبو زاهر. وفي باب الاستراحة نجد رسما كاريكاتيريا بريشة الفنان الفلسطيني، أبي النون، واختبارا للمعلومات العامة. وثمة أبواب أخرى تلخص أحكام الطباعة، واستخدام علامات التنقيط، وتوثيق المعلومات في البحوث، وبعض الدروس الموجزة في النحو والكتابة.

العدد الأول من «عود الند» صدر مطلع حزيران (يونيو) 2006، وتصدر المجلة في الأول من كل شهر، ولا تشترط على القراء أو الكتاب أي نوع من التسجيل لقراءتها أو الكتابة فيها. وعنوان موقعها هو: www.oudnad.net.